

الصحة النفسية والطفولة

تعد مرحلة الطفولة من أخطر المراحل الإنمائية في تكوين الشخصية الإنسانية، ولا يقتصر خطرها على أنها المرحلة التي توضع فيها بذور اضطرابات الشخصية المختلفة، بل إنها أيضاً المرحلة التي توضع فيها أسس الشخصية السليمة بأبعادها ومكوناتها المختلفة. إذ أن ما يكتسبه الفرد في هذه المرحلة من عادات واتجاهات وقيم عبر تنشئته وتربيته، إنما يميل إلى الثبات النسبي ويصعب تغييره فيما بعد. ويدلل على ذلك ما أيدته البحوث والدراسات التتبعية للأطفال، والدراسات الكلينيكية والتحليل النفسي للكبار، والدراسات الانثروبولوجية في كثير من الشعوب والقبايل البدائية (فهمي، 1967، ص 66). فنرى أن أصحاب مدرسة التحليل يؤكدون على أهمية مرحلة الطفولة، إذ يرون أن فيها تبذر Freud النفسي بزعامه فرويد البذور الأولى للصحة النفسية للفرد وفيها تتكون الملامح الرئيسة لشخصيته. فالاهتمام بالطفل هو "صمام الأمان" لكل المجتمع بعد حين (الهييتي، 1975، ص ص 47-48).

ولقد بيّنت الأديان السماوية أهمية الطفولة، وأولت اهتمامها الحثيث بالأطفال، ففي الديانة المسيحية نجد أن السيد المسيح يولي الطفل المكانة الأعظم والمثل الأوفر بين الناس كما في قوله: "إِنْ كُنْتُمْ لَا تَتَغَيَّرُونَ وَتُصَيِّرُونَ مِثْلَ الْأَطْفَالِ، فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. مَنْ أَلْتَضِعَ وَصَارَ مِثْلَ هَذَا الطِّفْلِ، فَهُوَ الْأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ" (العهد الجديد: متى 18: 3-4، مرقس 9: 36-37، لوقا 9: 47-48).

وفي الديانة الإسلامية نرى الاهتمام الواضح بالطفل منذ لحظة تكوينه وحتى بلوغه، ويذكر القرآن الكريم قوله تعالى: "المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، وفي قول الرسول الكريم محمد (ص): "الأطفالُ دعاميصُ الجَنَّةِ"، والدعاميص نوع من أنواع الفراشات (الطو، 2002، ص 195)، قد برزت حاجة ملحة إلى توفير رعاية خاصة للطفل ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى، ففي عام 1924م، صدر "إعلان جنيف لحقوق الطفل". وبدأ الاهتمام بالطفولة ورعايتها يتزايد مع زيادة اعتقاد المجتمعات بضرورة رعاية الطفل وحمايته على أساس أنه "ثورة المستقبل وأمل الأمة". وأتخذ هذا الاهتمام بُعداً عالمياً. ففي العشرين من تشرين الثاني لعام 1959م، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة "الإعلان العالمي لحقوق الطفل". إذ وافقت عليه الكثير من الدول المشاركة، وعُدَّ هذا الإعلان من أهم الوثائق في حياة الإنسانية وأحد أبرز معالم القرن المنصرم (القرن العشرين) الذي لم تتفق فيه دول العالم على أمر أكثر من اتفاقها على قضية الطفولة.

" سنة 1964م وهي منظمة Unicef وتلى هذا الإعلان إنشاء "منظمة الطفولة العالمية دولية متخصصة بالطفولة وقضاياها، تلتزم بتقديم العون والمساعدة إلى دول العالم كافة ، ولا سيما النامية منها في مجال رعاية الطفولة. وتم تكريس عام 1979م للطفل. وعُدَّ عيداً عالمياً له (عيد الطفل العالمي). وشهدت الأنشطة العالمية حركة متلاحقة لحقوق الطفل والاهتمام به، إذ بدأ العالم وبشكل لافت يولي رعايته واهتمامه الجادّين للأطفال، ويحدث إصلاحات كبيرة في نظمه التربوية والقانونية والسياسية انطلاقاً من مفهوم "رعاية الطفولة"، حتى انبثقت أفكار دولية حول وضع اتفاقية عالمية لحقوق الطفل. وفي عام 1989م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة "اتفاقية حقوق الطفل" وتضمنت هذه الاتفاقية العالمية (54) مادة. (41) مادة منها متعلقة بحقوق الطفل و(13) مادة منها متعلقة بآليات تنفيذ هذه الحقوق. وللاتفاقية أربعة مبادئ عامة:

- 1- عدم التمييز.
 - 2- الحق في البقاء والنماء.
 - 3- الحق في المشاركة.
 - 4- مصلحة الطفل الفضلى (توفيق، 2002، ص ص3-5).
- وتبيّن المواد: (1، 6، 24، 25، 38، 39) بشكل خاص الأهمية القصوى للطفل ورعايته وحقوقه الاجتماعية والنفسية والنمائية (اليونيسف، 1990، ص ص65-88). وفي عام 1990م عُقدت "القمة العالمية للطفل" من أجل مصادقة "اتفاقية حقوق الطفل"، وتم توقيع (192) دولة طرفاً على هذه الاتفاقية لتصبح مركز جدول الأعمال الدولي من أجل الطفل (الأمم المتحدة، 2001، ص174).

وفي العالم العربي شهد مجال حقوق الطفل العربي صدور "الدليل التشريعي النموذجي لحقوق الطفل العربي" عن مجلس وزراء العدل العرب في السادس من تشرين الثاني لعام 2000م. ويعد دليلاً استرشادياً للدول العربية، يغلب عليه الطابع الأدبي غير الملزم للدول الأطراف. وتم وضع "ميثاق حقوق الطفل العربي المحدث" في الثامن والعشرين من شباط لعام 2001م، وصُدق في مجلس جامعة الدول العربية (في المملكة الأردنية الهاشمية) وهو آخر ما تم التوصل إليه في مجال حقوق الطفل العربي على المستوى الإقليمي للدول العربية (الحو، 2002، ص201). كما أصدر المجلس العربي للطفولة والتنمية وثيقة "عالم صالح للأطفال" في العاشر من أيار لعام 2002م. تأكيداً على أهمية الطفولة ورعايتها، وإيماناً منه في دورها الحاسم في المشاريع التنموية والإنسانية (العقلا، 2002، ص ص9-10).

وبازدياد تعقد الحياة وتقدمها برز الاهتمام بالصحة النفسية للأطفال، على اعتبار أن الصحة النفسية تمثل المحصلة النهائية لعملية الرعاية والاهتمام بالطفل. وبدأت تلعب دوراً مهماً بل وأساسياً في حياة الإنسان، فوجود الصحة النفسية يعني القدرة على التكيف مع النفس أو المجتمع، فضلاً عن أنها عامل وقائي للسلوكيات غير السوية كالأضطرابات السلوكية والانفعالية والجسمية. إذ أن العلاقة بين الصحة النفسية للإنسان وصحته الجسمية أصبحت معروفة ومحسومة (حسني، 2001، ص4). ولقد نال موضوع الصحة النفسية اهتمام العديد من العلماء والمتخصصين في المجالات النفسية والطبية والاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية. وأصبح هذا الموضوع من الأمور الهامة التي ينبغي أن يوجه إليه الفرد والمجتمع الرعاية اللائقة به، لأن الاهتمام بالصحة النفسية، اهتمام بالإنسان وتكاملته. والاهتمام بتنمية شخصية الفرد بجوانبها المتكاملة بصورة سليمة ومتوازنة يعني الاهتمام بجوانب الصحة النفسية، وأن العمل على تخفيف المشكلات السلوكية أو حلها لا يتم إلا على أسس ومفاهيم الصحة النفسية (سمين، 1997، ص6) (الهابط، 1983، ص9).

إلى أن الصحة النفسية مسؤولية اجتماعية، وإن اضطراب العقول Beers ويشير بيزر هو النتيجة الحتمية لسوء فهم الفرد لنفسه وسوء فهم المجتمع له، وإن إصلاح العقول مطلب عام يوجب العناية بالفرد منذ الطفولة، وأنه كي تصلح العقول وتسلم من المرض، لا بُد أن تصلح العلاقات الاجتماعية جميعاً (الحفني، 1995، ص442).

أن الصحة النفسية تكمن في قوة الأنا على تحقيق Sullivan في حين يرى سوليفان الحاجات البيولوجية وتحقيق الأمان الاجتماعي، فالفرد يسعى إلى الرضا عن الحاجات البيولوجية وإلى علاقة اجتماعية مع الآخرين، وإن أي تصدي لهذين الهدفين يسبب الاضطراب النفسي (الزبيدي والهزاع، 1997، ص179).

أن الصحة النفسية لدى الفرد تتحدد في بيئة طبيعية مستقرة، Horney وترى هورني (Young, 1952, P.264) وإشباع الحاجات الأساسية عنده حيث الاقتناع والفهم

أن الصحة النفسية للإنسان مبنية على نموه الكامل السوي Maslow ويرى ماسلو المنشود، الذي يقوم بدوره على تحقيق الامكانات والنمو في اتجاه النضج بما يدفع نحو مسار (Maslow, 1970, P.75) تحقيق الذات .

فيرى أن الصحة النفسية الجيدة تكمن في تمتع الفرد بمفهوم Rogers أما روجرز ايجابي عن ذاته، وبسعيه المتواصل نحو تحقيق ذاته. وأن الفرد ينزع فطرياً لتأكيد ذاته

وتحقيقها من خلال تفاعله الاجتماعي مع مجاله الظاهري (كما يدركه هو) وتشكيل خبراته عن هذا التفاعل (العزة وعبد الهادي، 1999، ص110).

إلى أن الصحة النفسية تتركز على البعد الاجتماعي الذي يرى Fromm ويشير فروم أن Fromm أنه يصنع الشخصية من حيث كونها توافق الفرد مع بيئته النفسية، إذ يرى فروم الفرد المتمتع بالصحة النفسية هو الشخص المنتج الذي لا يشعر بالغبية النفسية، والذي يحب نفسه ويحب الناس وينتمي إلى العالم كله (الحفني، 1995، ص444).

وتبدو أهمية الصحة النفسية من خلال ما أنجزته دول العالم حول هذا الموضوع. ففي الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، يتجلى أهم جهد عالمي مبذول (119/46) القرار في مجال حماية حقوق المرضى النفسيين وأكثرها جدية. إذ تم اعتماد هذا القرار في الأمم المتحدة عام 1991م. وعلى الرغم من أنه غير ملزم قانوناً، إلا أنه ينص على طائفة من الحقوق الأساسية التي يعدها المجتمع الدولي حقوقاً مصونة سواء في المجتمع أو للأفراد المرضى. وهو يضم (25) مبدأً مندرجاً ضمن فئتين: "الحقوق والإجراءات المدنية"، و "الحصول على الرعاية وجودتها" (منظمة الصحة العالمية، 2001، ص114).

وهناك أيضاً عدد من المواثيق الإقليمية لحماية حقوق المرضى النفسيين بما في ذلك "الاتفاقية الأوروبية لحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية"، التي تدعمها المحكمة الأوروبية بشأن العلاج النفسي وحقوق الإنسان، المعتمدة 1235 (1994) لحقوق الإنسان، والتوصية رقم ، و (1978) من الجمعية البرلمانية للمحكمة الأوروبية، و "الاتفاقية الأميركية لحقوق الإنسان" "إعلان كاراكاس" المعتمد من قبل المؤتمر الإقليمي المعني بإصلاح الرعاية النفسية في أميركا اللاتينية عام 1990 (منظمة الصحة العالمية، 2001، ص115).

وباستمرار الأنشطة الرامية إلى تعزيز دور الصحة النفسية في المجتمعات الدولية برزت اتجاهات دولية نحو إيلاء الاهتمام المكرس للصحة النفسية للأطفال والمراهقين كفعل جديد لا ينتمي إلى أفعال الماضي، التي اقتصر في إيلاء الأهمية البالغة للصحة النفسية للكبار ركزت في عام 2003م على الصحة النفسية (W.H.O.) وبالبالغين. فمنظمة الصحة العالمية للأطفال، واختارت موضوع "الاضطرابات العاطفية والسلوكية للأطفال" محوراً لليوم العالمي للصحة النفسية الذي يوافق العاشر من تشرين الأول من كل عام (منظمة الصحة العالمية، 2003، ص1).

إن هذه الظروف المليئة بالضغوط والهلع والضييق، وكذلك الطموحات والرغبات غير المتحققة إلى جانب ما فيها من حوادث عنف وقتل وتفكك أسري، مقرونة بالحروب والنزاعات المسلحة، كلها أسهمت في إرهاب الإنسان وزيادة توتره وخوفه وزحزحت استقراره، وبالتالي صعوبة توافقه أو تكيفه مع المحيط الذي هو جزء منه، ولاسيما الأطفال الصغار (العيسوي، 1989، ص ص 25-26). فالحروب بما تحويه من ألم وموت وفترات عصبية من شأنها أن تضعف كافة المرتكزات الضرورية للنمو السليم في مرحلة الطفولة، وتشمل هذه المرتكزات، الإحساس بالأمن والسلامة، والثقة بالآخرين، والثقة بالنفس، واحترام الذات (مكتب اليونيسف الإقليمي، 1995، ص 17). فقد وصف الكثير من الباحثين عصرنا الحالي، بأنه عصر الصدمات والأزمات النفسية، وأسمى البعض الآخر منهم حضارة العالم بـ (حضارة الصدمات) أو (حضارة الكوارث) (إبراهيم، 1994، ص 553). ولا عجب أن أسمت قوات الاحتلال الأجنبي حربها على بلدنا العزيز حرب (الصدمة والترويع) (البدراوي، 2003، ص 2).

ومما لا شك فيه أن ما أصاب العراق وما يصيبه من محن وكوارث، كان له آثار سلبية ملموسة على الأهلين (السكان) بصورة عامة، وعلى الأطفال الذين ترعرعوا في مناخ الحرب سواء كان مردها إلى الطبيعة أو إلى البشر، هي Disasters بصورة خاصة. فالكوارث . ولقد (Lechat, 1976, P.421) ظروف مفاجئة وغير متوقعة يصعب على المجتمع تداركها. عرّفت الحرب بأنها كارثة سببها الإنسان، وذلك لأنها تقوّض النظم القائمة وتخلق حالات من التوتر الجماعي تسببه الخسائر البشرية والمادية، والنظرة السلبية إلى وقائع الأمور، والتحسس بخطر الموت والإعاقة، و تُرهِق هذه العوامل مجتمعة كاهل الفرد، وتضعف بالتالي قواه في . (Kinston & Rosser, 1974, P.439) (Boman, 1979, P. 465) المقاومة والتكيف لذلك لاحظت الدراسات السابقة المتعلقة بتأثير الكوارث، إن التحول من التمتع بالصحة إلى الاعتلال المرضي، قد يكون نتيجة مباشرة للإصابة أو الإعاقة ومواجهة الموت، أو قد يطرأ في المرحلة التي تلي ذلك. وما التغير الجسدي والنفسي اللاحق بالأفراد سوى نتيجة للكوارث (Logue et.al., 1981, P.68) التي تقع، وخصوصاً تلك التي تدوم مدة طويلة من الزمن . فقد كان ولا يزال تأثير الحروب على المجتمعات السكانية (Logue et.al., 1981, P.140) مفاجئاً ومتراكماً في آن معاً. وضمن هذا التصور كان لا بُدّ لصدمات الحرب أن تؤثر على الأطفال. إذ أظهرت الكثير من الدراسات السابقة، العلاقة الارتباطية الوثيقة بين التعرض ، (Newman, 1976, P.P.306-312) المباشر للكوارث ونمو الأطفال وتطورهم وصحتهم (منظمة الصحة العالمية، 2001، ص 60) (Brown et.al. 1972) كدراسة براون وآخرين ودراسة هولمز وراها (1967)،

